الفصل الثالث

الوقائع الاقتصادية في ظل نظام الرق والعبودية

بدا نظام الرق بالتشكل عقب انهيار النظام المشاعي البدائي حوالي ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ قبل الميلاد و استمر إلى غاية القرنين الثالث و الرابع الميلادي في شمال إفريقيا و آسيا و ازدهر في اليونان و روما إلى غاية القرن الخامس الميلادي . لقد شملت عمليات الإنتاج في هده المرحلة كل من الرعي و الزراعة و النشاط الحرفي - ظهرت هده الأعمال و تطورت في ظل النظام المشاعي - إلا أن شروط و ظروف الانتاج في هده المرحلة تختلف في نظام الرق عنه في النظام المشاعي . ان زيادة قدرات الانسان الانتاجية وزيادة واتساع استخدامه لوسائل وادوات الانتاج وبالذات المعدنية منها وما ادى اليه ذلك من زيادة انتاجيته وانتاجه وما رافقه من تخصص وتقسيم عمل بين المجاميع البشرية التي تخصصت في الزراعة، والمجاميع البشرية التي تخصصت في تربية الحيوانات، والمجاميع البشرية الاقل التي امتهنت الصيد، او تلك التي بدأت بامتهان بعض النشاطات الحرفية، وبالذات ما يتصل منها بصنع ادوات الانتاج و الادوات المنزلية وادوات الحماية و الدفاع عن النفس وغيرها مما تطلبته الاوضاع انذاك، وهو الامر الذي افرز معه تحقق فائض من انتاج المنتجين وادى الى زيادة المبادلات ونشوء الملكية الخاصة، وبالذات لبعض الافراد سواء من رؤساء او وجهاء القبائل و العشائر او من المنتجين الذين مكنتهم ظروفهم وقدراتهم الخاصة على امتلاك مثل هذا الفائض من خلال ملكيته ملكية خاصة بالأسرة والفرد، بعد ان كان الفائض و المبادلات والملكية ملكية جماعية للجماعة التي مثلتها القبيلة او العشيرة في المراحل الاخيرة من تطور النظام البدائي .

لقد نشأ الرق عن طريقين : ففي الحروب العديدة في ذلك الوقت كان مصير المهزوم ان يتحول الى رقيق، فكان الرقيق اعظم غنيمة للمنتصر، كانت الحروب اعظم مزود بالارقاء للعديد من الدول القائمة على الرق مثل الدولة اليونانية والدولة الرومانية وغيرهما . ولهذا فقد كانت الدول القائمة على الرق تشن حروبا مستمرة، وتقوم بنهب وسلب الشعوب المجاورة، مما ادى الى افقار كثير من البلدان من ساكنيها

الذين تحولوا الى ارقاء، لكن الحرب لم تكن وحدها مصدرا للرق فقد كان الناس الذين يثقل كاهلهم الديون يبيعون آبائهم وابنائهم لسداد تلك الديون فيتحولون بذلك الى ارقاء . وبإيجاز كان مصدرالرق انقسام المجتمع الى اغنياء وفقراء .

٣ـ١ : عوامل ظهور النظام العبودي وخصائصه

اولا : عوامل ظهور نظام الرق والعبودية :

يعد نظام الرق أو العبودية، الذي حلَّ محلَّ النظام المشاعي البدائي، أول نظام في التاريخ يقوم على الاستغلال و الانقسام الطبقي. و هناك عدة عوامل ساهمت في ظهور هذا النظام الاقتصادي، و أهمها :

١ .التقسيم الاجتماعي المستمر للعمل الذي ادى مع تطور ادوات الانتاج الى ظهور الفائض في الانتاج مما جعل استغلال القوى العاملة امرا مفيدا، والواقع ان الانسان عندما ينتج اكثر من حاجته يصبح بإمكانه امتلاك منتوج عمل الآخرين، وفي نظام الرق والعبودية وفي هذا المستوى من تطور ادوات الانتاج كان مجرد امتلاك وسائل الانتاج لا يكفي لامتلاك منتوج عمل الآخرين، فكان من الضروري تحويل الانسان نفسه الى وسيلة عمل، الى سلعة من اجل ارغامه على العمل للآخرين، فجاء الرق كشكل مربح للاستغلال من الناحية الاقتصادية .

٢ .ظهور الملكية الفردية و ما ترتب عنها من علاقات اقتصادية جديدة أخلت بنظام التوزيع المتساوي لمنتوجات العمل . ان ظهور الملكية الفردية ادى الى نسف رابطة الدم ضمن العشيرة والقبيلة والى اختلاف العشائر بعضها عن بعض، والى ظهور الشعب الذي يتميز بوحدة الارض واللغة والثقافة، وهو شكل اجتماعي اكثر تطورا من العشيرة والقبيلة، ومع ظهور الشعب نشأت الظروف الملائمة لاستمرا عملية التطور التاريخي، وهو كشكل اجتماعي يخلق احسن الشروط من اجل تطور تقسيم العمل .

٣.أدى التبدل الحاصل في بنية المجتمع إلى حتمية تطور و نمو قوى الإنتاج و انحلال العلاقات الإنتاجية للقبيلة البدائية، فحل العمل الفردي محل العمل الجماعي، و حلت الملكية الفردية محل الملكية الجماعية، هذا ما أدى بدوره إلى

تغير في منظومة الحقوق والواجبات. وظهر التناقض الطبقي الرئيسي بين الارقاء من جهة ومالكيهم من جهة اخرى .

ثانيا : خصائص النظام العبودي:

١- الملكية :

ساد في هده الفترة ما يسمى بنظام الملكية المطلقة لوسائل الإنتاج، الأرض وأدوات العمل، فضلا عن امتلاك الإنسان - العبيد - واعتباره شيء من الاشياء و اداة من أدوات الإنتاج - اداة عمل ناطقة عند الرومان -، مع الحرية المطلقة في التصرف في هده الممتلكات بما فيها العبيد، كان السادة يستولون على المنتوجات ولايقدمون للرقيق سوى جزء يسير منها لا يكفي لسد الحد الادنى من حاجاته الضرورية.

٢- العمل:

لقد كانت السمة الغالبة للعمل في هده المرحلة هي العمل الجماعي و التعاون بين العبيد، و لكن في إطار الإكراه الاقتصادي و القسر والاستغلال لصالح السادة الدين يمتلكون أدوات العمل بما فيها العبيد (الإنسان) وكان العبيد محرومين من جميع الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية .كان الرقيق سلعة تنتقل من يد الى اخرى، لقد كان وضع الارقاء قاسيا جدا وكان استثمارهم ذا طابع غير انساني، ومن ثم كان اقتصاد الرق والعبودية مرتبطا بالعلاقة الوحشية مع الارقاء الذي يشكلون القوة الانتاجية الرئيسة في المجتمع . إلى جانب عمل العبيد في جميع المجالات، الزراعة والرعي والعمل الحرفي. كان العبيد يقومون بإنتاج الجزء الاعظم من المنتجات ويشكل نشاطهم العمود الفقري في عملية الإنتاج .

لقد شكلت طبقة العبيد الأساس الاقتصادي لعملية الإنتاج و الوسيلة الأساسية للثروات في المجتمع العبودي، فلم تعد المجموعة القبلية تعمل لسد حاجاتها الاقتصادية، بل أصبحت طبقة من المجتمع تعمل من أجل تحقيق فائض بالنسبة لطبقة الأسياد. يقوم تقسيم العمل في نظام الرق والعبودية على أساس طبقي اجتماعي إلى: عمل جسدي و آخر ذهني، فالعمل الجسدي تخصص به الأرقاء للإنتاج

المادي، فقد اختصوا في أعمال البناء والتشييد والمناجم و شق الطرقات، في حين كان العمل الذهني من نصيب الأسياد الذين اختصوا بالإدارة الحكومية والسياسة والفلسفة والشعر والأدب والفن، إلى جانب العمل الحرفي الذي اختص فيه الحرفيين وكذلك النشاط التجاري للمرابين

في المجتمع العبودي كان هناك بعض المنتجين من الأحرار الدين كانوا ينتجون بصفة فردية حيث تمتعوا بحرية امتلاك وسائل الإنتاج و العمل و كانوا في الغالب متخصصين في بعض الأعمال الحرفية - الحدادة والألبسة والزراعة - إلا انهم في نفس الوقت يخضعون للنظام العام، حيث كان يتعين عليهم دفع ضرائب للدولة سواء في صورة نقدية أو عينية، وكانت هذه الفئة من الأحرار تمثل عماد الجيش وركيزته الاساسية . اذ لا يسمح للعبيد بالعمل في الجيش وذلك لحاجة الأسياد الماسة إليهم لممارسة العمل في أوجه النشاطات الاقتصادي المختلفة .

٣- نمو القوى المنتجة :

حدث تطور كبير في وسائل الإنتاج الزراعي و ظهرت أدوات عمل جديدة لم تكن معروفة من قبل كالمنجل والمعول ونول النسيج، كما حدث تخصص في العمل الزراعي نفسه - تقسيم اجتماعي للعمل - تمثل في ظهور أعمال البستنة. وتطورت زراعة الارض وانشاء البساتين وصناعة الخمور والزيوت . أما في المجال الحرفي فقد حدث تطور هام في صناعة الأواني و الحدادة كما انفصلت صناعة النسيج عن صناعة الغزل وظهرت صناعة الألبسة وأدوات الزينة كأعمال مستقلة، ويؤكد المؤرخون انه في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد كان في اليونان ٥٠ حرفة.

٤- القانون الاقتصادي الأساسي :

يمكن تلخيص القانون الاقتصادي الأساسي للنظام العبودي فيما يلي : إنتاج الخيرات المادية لسد حاجات الأسياد المتزايدة باستمرار و كان يتم دلك عن طريق الاستثمار في العبيد. و يمكن القول أن العبيد كانوا يمارسون مختلف الأنشطة لصالح الأسياد في شكل علاقة - سيد - عبد، وكانت المنتجات توزع بين السادة و العبيد. وكان من حق السادة تحديد الكيفية التي يتم بواسطتها توزيع المنتوج و الذي عادة ما

كان يتم تقسيمه إلى جزأين:

ا- المنتوج الضروري :و هي كمية من المنتوج (الحبوب مثلا) موجهة لسد الحاجات الأساسية للعبيد من اجل القيام بعملية تجديد قوة العمل و الاستمرار في الإنتاج.

ب- المنتوج الفائض : يمثل القسم الأعظم من المنتوج ويستخدم من قبل السادة لإشباع الحاجات الاستهلاكية وبناء القصور والمسارح و غيرها .

٥- العلاقات النقدية و السلعية في نظام الرق :

أ - التبادل:

ظهر التبادل وتطور بشكل بطئ في ظل نظام المشاعي، وكان التبادل بين المنتجين في شكل سلعة مقابل سلعة . تطورت عمليات التبادل في هده المرحلة وأصبحت بظهور النقود - التي تطورت هي الأخرى واخذت أشكالا مختلفة - تتم في شكل سلعة - سلعة نقدية - سلعة. ولقد أدى دور السلعة النقدية كل من الماشية والملح والسمك المجفف والجلود، ثم تطورت النقود واخذت أشكالا معدنية كان لها أثرا كبيرا في تطور و تنمية التجارة.

ب- ظهور رأس المال التجاري و رأس المال الربوي:

مع تعاظم دور النقود كوسيط للمبادلة و في ظل بعد المنتجين عن بعضهم البعض و تبعثرهم أدى هذا إلى ضرورة وجود فئة تقوم بدور الوسيط بين البائعين و المشترين - بعد أن كان يتم التبادل بين المنتجين مباشرة -، و كان ظهور العمل التجاري ثالث تقسيم اجتماعي كبير للعمل، حيث تخصصت فئة من التجار بشراء و بيع السلع و كان الفرق بين سعر البيع و الشراء مصدر الربح التجاري، و بدلك لم يعد دور النقود يتمثل في قياس القيمة فقط و لكن أصبحت النقود كوسيلة لجمع الثروة و ظهر لأول مرة رأس المال التجاري . أما رأس المال الربوي الذي ظهر في هده المرحلة فقد اتخذ من النقد وسيلة للإقراض و التسليف، حيث يقوم المرابون بتقديم القروض النقدية إلى السادة و المنتجين و الأفراد مقابل معدل فائدة.

ثانيا : عوامل انحلال نظام الرق والعبودية

١. ان الفائض الذي يتحقق نتيجة العمل في النشاطات الاقتصادية والذي يستحوذ عليه الاغنياء ومن ابرزهم ملاك العبيد و المرابين لا يعيدون استخدامه في القطاعات الاقتصادية بل انه يتم هدره وتبديده في مجالات غير انتاجية وبالذات من خلال الاستهلاك الترفي وتبديد جزء مهم من الفائض في مجالات عدة منها: بناء القصور الضخمة وإقامة المعابد والانفاق الواسع على اقامة الاحتفالات

والمهرجانات وغيرها وهو ما ادى لاحقا الى اقتراض هؤلاء الاغنياء من المرابين والجهات الاخرى التي تتعاطى الاقراض وبفوائد اثقلت كاهل هذه الفئات .

٢. ان ضعف تطور الانتاج وانخفاض الانتاجية عموما وانتاجية العبيد خصوصا، نتيجة عدم وجود الحوافز التي تدفعهم الى زيادة انتاجيتهم، نظرا لانهم كانوا يفتقدون كل حقوقهم الانسانية ويتم التعامل معهم كأحد ادوات الانتاج التي يملكها المالك وحتى ان ما يتم توفيره لهم من متطلبات العيش بحدها الادنى لم تكن تكفي في حالات ليست بالقليلة حتى الحفاظ على حياتهم، وهو الامر الذي ادى الى تناقص اعدادهم نتيجة لذلك بسبب تعرضهم للجوع او الموت او هروبهم الى المدن نتيجة لاوضاعهم القاسية هذه ولظروف العمل القاسية التي يؤدون فيها عملهم، وبذلك اصبحت القوة الاساسية المنتجة في ظل النظام العبودي وهي قوة عمل العبيد منخفضة الانتاجية من ناحية وتتعرض للتناقص في اعدادها من ناحية اخرى.

٣. ان ضعف انتاجية عمل العبيد وتراجع اهميتهم في القيام بالنشاطات الزراعية و الحرفية والمنزلية وغيرها، وزيادة متطلبات الانفاق الواسع و الترفي في الغالب و الذي يتسم بعدم العقلانية وما يتضمنه من هدر وتبديد واسع للفائض الذي يحققه انتاج العبيد، ولجوء ملاك العبيد الى الاقتراض من المرابين، مما دفعهم في حالات ليست بالقليلة وبالذات في نهايات النظام العبودي الى التوجه نحو تأجير املاكهم وبالذات الاراضي الزراعية والحصول على مبالغ نقدية يستخدمونها في تلبية احتياجاتهم، وهو الامر الذي ادى الى التقليل من الاعتماد على عمل العبيد في النشاطات عموما و في النشاطات الزراعية خصوصا، مما افقد النظام العبودي الاساس المهم لهذا النظام وهو عمل العبيد.

٤. ان تراجع اهمية عمل العبيد نتيجة ما سبق، ادى الى توسع النشاطات التجارية وبعض النشاطات الحرفية وبالذات في المدن، وخاصة من خلال استخدام التجار وبعض الحرفيين لمواردهم المالية في توسيع النشاطات التجارية والحرفية في المدن، وهو الذي اضعف بدرجة كبيرة قوة ملاك العبيد وسلطتهم الاقتصادية و العسكرية والسياسية.

٥. العوامل الخارجية التي اسهمت في انهيار النظام العبودي والتي تمثلت بالغزوات الخارجيـة وخاصة الغزوات الجرمانية و السـلافية وغيرها، والتي غزت معاقل النظـام العبودي وبالذات روما، والتي ادت الى القضـاء على امبراطورية روما، ونتيجـة لعوامـل ضعفها وانحلالهـا الداخلية و التي كانت الاسـاس في ضعف قـدرة النظام العبودي على توفير اسـباب القوة التي تمكنـه من مقاومة الغزوات الخارجيـة، وقـد أدت الصراعـات داخـل النظـام العبـودي الى تيسـير السـبل للغزوات الجرمانية واحتلال اراضي امبراطورية روما، وانتهاء اساسـيات عمل النظام العبودي مع سقوط امبراطورية روما رغم ان بعض بقايا النظام العبودي وبعض سـماته لازالت قائمة وموجودة حتى وقـت قريب في العديد من مناطق العالم .